

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

الجانب الأنثروبولوجي الديني في الفكر الإصلاححي لابن باديس

Religious anthropological trend in the reformist thought of Ibn Badis

ط/د: مرين محمد<sup>1</sup>

Merine Mohamed

إشراف: أ.د. محمد موسوني

Mohamed Moussouni .Pr:supervision

المركز الجامعي: صالح أحمد - النعاما

University Center: Salhi Ahmed Al-Naama

mh.merine@gmail.com

Abu Bekr Belkaid University of Tlemcen

تاريخ القبول: 2020/01/28

تاريخ الارسال: 2020/01/18

ملخص:

يتناول هذا البحث المنطلقات الفكرية الإصلاحية التي بنى عليها رائد الإصلاح الديني والثقافي الجزائري، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عبد الحميد بن باديس، مشروعه النهضوي، الذي ساهم في الإصلاح الديني والثقافي والاجتماعي، الذي ساهم بدوره في إعداد المجتمع الجزائري لمواجهة التحديات و الصعوبات التي واجهته، في سياق وجود الاحتلال وفرضه لسياسة القمع والتجهيل و الإفكار، فقام عبد الحميد بن باديس بجهود كبيرة لإحداث ذلك التحوّل في الوعي والسلوك الاجتماعي ليرتقي الإنسان الجزائري إلى مرحلة الوعي بذاته وشخصيته، و كشف تأثير هذه المنطلقات الفكرية في إثراء الدراسة عن المبادئ الكلية التي تؤثر في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية للإنسان بما يثري الدرس الأنثروبولوجي ويمنحه رؤية واسعة عن ترقية الفكر والسلوك الإنساني في ظل الفكر الإصلاححي الإسلامي.

كلمات مفتاحية: الإنسان، بن باديس، الإصلاح، المجتمع الجزائري، الوعي

---

<sup>1</sup>- المؤلف المرسل: مرين محمد، الإيميل: mh.merine@gmail.com

**Abstract:**

This research deals with the reformative intellectual premises on which the pioneer of Algerian religious and cultural reform, the President of the Association of Algerian Muslim Scholars, Abdel Hamid bin Badis, built his Renaissance project, which contributed to religious, cultural and social reform, which in turn contributed to preparing the Algerian society to face the challenges and Difficulties it faced in the context of the existence The occupation and its imposition of the policy of oppression, ignorance and impoverishment, so Abdul Hamid bin Badis made great efforts to bring about this shift in awareness and social behavior to the Algerian man's transformation into a stage of awareness of himself and his personality, And the effect of these intellectual premises on enriching the study revealed the holistic principles that affect the religious, cultural and social life of the human being, which enriches the anthropological lesson and gives him a broad view on the promotion of human thought and behavior in light of Islamic reformist thought.

Keywords: The human being, Abdelhamid Ibn Badis, reform, Algerian society.

مقدمة:

الحركة الإصلاحية التي قادها عبد الحميد بن باديس (Abdelhamid Ibn Badis) في استنهاض المجتمع الجزائري لتغيير واقع التخلف والاحتلال، كانت بحاجة إلى رؤية حضارية في فهم واقع المجتمع، ومتطلبات إصلاحه علميا وثقافيا واجتماعيا، للوصول إلى تغيير في وعيه، بما يجعل منه مجتمعا ينتقل من حالة الخنوع، وفقدان الإرادة، والقابلية للاحتلال، إلى حالة من الوعي الجماعي، بإرادة على التغيير، وقدرة على الإصلاح، وعزم على تقرير المصير، واستعادة الحرية والكرامة، والحق في الاستقلال، ومقاومة الاحتلال الذي عمل جاهدا، وفق إستراتيجية متكاملة، للسيطرة على المجتمع الجزائري، وفرض هيمنته الحضارية التي أغرقت المجتمع في حالة من اليأس وكاد يستسلم لإحباطه السلبي في إمكانية تحرره وتغيير واقعه، لولا حركة الوعي التي لاحت من جديد، ومنها حركة الإصلاح التي بعثت الحياة في جسم المجتمع الجزائري ليؤمن من جديد بكيانه ووطنه.

فالإصلاح الديني الذي عمل على تغيير الإنسان الجزائري وترقية ثقافته ووعيه، من خلال مجموعة من الآليات العميقة في بلورة وعي ديني تحرّري، ساهم في بعث جديد للمجتمع الجزائري بعد سنوات من هذه الجهود، والتي أصبحت نموذجا إصلاحيا للجماعات الإنسانية التي تكون في حالة من الضياع والتخلف وتزيف الوعي، وتنتقل إلى حالة من الوعي والحيوية وقابلية التغيير الإيجابي، لاستعادة شخصيتها وحقوقها و بناء هُمتها، في القيام بمتطلبات التحدي لواقعها، و تجاوز ومقاومة العوائق الحضارية التي عمل الاحتلال على وضعها لمنعها من التحرّر وتقرير مصيرها، و دراسة جهود عبد الحميد بن باديس الفكرية العديدة والمتنوعة، و كشف ما يمكنه أن يمنحه للأنتروبولوجيا في فهم المنطلقات العقائدية والفكرية العامة التي توصل للفكر الإصلاحية عند عبد الحميد بن باديس وحركته.

وهذا النموذج الإصلاحية جدير بالدراسة لمعرفة الأداء الوظيفي لثقافة الإصلاح في المجتمعات الإسلامية، وما مدى دور الفكر الإصلاحية في بعث الوعي الحضاري في المجتمع الجزائري؟ وكيف استطاع بناء وعي الإنسان الجزائري للتغلب على واقعه المتخلف والتحرر من قيوده؟ وأثر هذا الفكر في وضع كليات ثقافية للتأثير في وعي الإنسان وسلوكه؟ بما يثري اهتمامات الأنتروبولوجيا في البحث عن المثل العليا وتأثيرها في حياة الأفراد وتغيير حياتهم (محمد الجوهري، وآخرون، 22، 2009) حيث يعمل البحث بمنهجية وصفية تحليلية للوصول إلى حصر أهم ملامح هذه التجربة، ومناقشة الأسس الفكرية والقواعد المنهجية التي ينطلق منها ابن باديس في رؤيته الفكرية للعالم والإنسان، وفهم مرجعيته من خلال فكره في بناء ذلك الوعي الثقافي للمجتمع الجزائري، وفهم نفسيته والقدرة على تغييره وإصلاحه بما يخدم الدرس الأنتروبولوجي المعاصر.

أولا: ابن باديس والسياق الأنتروبولوجي الديني .

### 1: شخصية بن باديس الإصلاحية:

عبد الحميد بن باديس الإمام والمصلح، رائد النهضة الإصلاحية في الجزائر، ولد سنة 1305هـ - 1887م، درس في الجزائر ثم في تونس بالزيتونة، وقاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محافظا ومدافعا عن هوية الشخصية الوطنية الجزائرية، ومشاركا ضمن الحركة الوطنية في عملها على استنهاض الشعب الجزائري، وتوعيته بحقه في الاستقلال والحرية، خلال حياته، حتى وافته المنية في قسنطينة سنة 1359هـ - 194م، ترك مجموعة من الآثار العلمية من مقالات و قصائد ومحاضرات في تفسير القرآن الكريم (ينظر: الزركلي، 3، 2006/289) وساهمت شخصية عبد الحميد بن باديس وصفاته في تسهيل تكريس مشروعه

الإصلاحي، بوصفه إماما وخطيبا ومنتقفا، تزوّد بالعلوم اللغوية والدينية، وأثرى تجربته ورصيده العلمي برحلاته وتجربته الحياتية، حيث "مميزة بن باديس أنه كان عنصرا بارزا بين النخبة المثقفة بالعربية، وأنه استطاع أن يتجاوز حدود محيطه، ليتبادل النقاش والحوار والتأثير مع النخبة المثقفة بالفرنسية" (الميلي محمد، 2007، 12) فامتاز بمرونته العلمية والحوارية وشخصيته السلسة التي ربطت علاقات بالذخ العلمي والسياسية والدينية في الجزائر، ضمن حركة وطنية ساهمت في التمهيد للثورة التحريرية.

فارتبط ابن باديس بمرحلة تاريخية مهمة وثرية، صقلت شخصيته العلمية والدينية فأصبح لا يقتصر على نشاطه الديني في المسجد ولكن توسّع مشروعه إلى الحالة الوطنية، كما ذكر مالك بن نبي في مقدمة "آثار بن باديس" "فقد كان ابن باديس مصلحا اقتزن اسمه وأثره بتاريخ هذا البلد في مرحلة سياسية كانت تعدّه للثورة، وفي هذه الكلمة من المعاني أكثر مما تعودنا أن نفهم" (ابن باديس، 1997، 10/1) فتنوّع نشاط ابن باديس الإصلاحي ليشمل ميادين مختلفة استطاع أن يتكيف معها ويمارسها، ولم يتوقف عند شخصيّة الإمام حيث مارس التعليم والصحافة و الإصلاح الاجتماعي... "وراح ابن باديس يعمّق عمله ويصعد نشاطه، من الدروس المسجدية إلى منبر الجريدة، إلى مدارس اللغة العربية، إلى التبشير بالإصلاح الديني والاجتماعي على نطاق واسع بعد تأسيس جمعية العلماء، إلى الاحتكاك بالأحزاب والأوساط السياسية المختلفة، داعية إلى الإتحاد، مبشرا بالتغيير" (الميلي محمد، 2007، ص13) .

فاستطاع أن يوظف آليات مختلفة للوصول إلى هدف واحد وهو الإصلاح الشامل للمجتمع الجزائري، وعمل على تلبية احتياجات المجتمع من التعليم والتوعية و التقييم الاجتماعي، يقول مالك بن نبي "ويجب علينا أن لا ننسى أنّ الشيخ علاوة على دوره في توجيه الرأي العام الجزائري العام، كان كذلك المعلم الذي يدرّس في معهد تكوّن فيه كل قادة تعليمنا الحرّ" (ابن باديس، 1997، 12/1) فاهتمامه بالتربية والتعليم جعله يبيّن مشروعه الإصلاحي على منهج تربوي وتعليمي.

فكان المصلح الشامل الذي يسعى إلى حركة إصلاحية عامة لمناحي الحياة، يقول البشير الإبراهيمي: "وهو مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع، ويدعو للنهضة والحضارة، ويغرس الحبّ وأصول الأخلاق التي هي جوهر المدنية" (ابن باديس، 1997، 91/1) فكانت شخصيته محورية في هذه الحركة النهضوية، يضيف البشير الإبراهيمي "إنّه شخصية عجيبة، مجدّد النفوس البالية وباعث الضمائر الخاملة، والقلوب الهامدة، باث للعلم، محرك للعقول، مرجع الثقة للناس، زارع بذور الثورة، مشيع فكرة الحرية، مبين للحجة البيضاء

التي ليلها كنهانها، فانكشفت به الغياهب الدكناء" ( ابن باديس،1،94/1997) وهكذا كانت شخصية بن باديس مؤهلة علميا وثقافيا وإنسانيا لقيادة هذه الحركة الإصلاحية المؤثرة في الوعي والسلوك في المجتمع الجزائري.

## 2: ابن باديس والسياق الإصلاحي:

جاءت حركة ابن باديس الإصلاحية ضمن مسار إصلاحي اجتاحت العالم العربي والإسلامي في الحفاظ و الإحياء لأصالته الهوياتية التي تعبر عن ثقافته وشخصيته، ( ينظر: شارلوت سيمور سميت، 98،2009) فالعالم الإسلامي الذي تشابحت أوضاعه الحضارية المتخلفة وواقعه الاستعماري المرير، الذي كان يريد ترسيخ صورة نمطية للإنسان المسلم، وقادت مجموعة من أعلام الإصلاح الديني هذه الحركة الإصلاحية من أشهرهم جمال الدين الأفغاني وهو من رائد الإصلاح الديني الحديث، ولد سنة 1254هـ-1838م، بأفغانستان وأصدر مجلة العروة الوثقى بباريس، رفقة محمد عبده، وتوفي سنة 1315هـ-189م، من مؤلفاته رسالة الرد على الدهريين. (ينظر: الزركلي،2006، 168/2، 169). فأسس مرحلة جديدة من الفكر الإسلامي الإصلاحي ثم جاء بعده محمد عبده، وهو كذلك من دعاة الإصلاح الإسلامي، ولد بإقليم الغربية بمصر سنة 1266هـ الموافق 1849م، الإمام الأزهري له مواقف في محاربة الطغيان والاحتلال في البلاد الإسلامية، وتوفي سنة 1323هـ - 1905م، مفتي الديار المصرية، (ينظر: نويهض عادل،2،1988/566). ورفيقه محمد رشيد رضا، عالم بالتفسير والتاريخ الأدب، وهو أحد دعاة التجديد والإصلاح، ولد بقلمون لبنان سنة 1282هـ-1865م، هاجر إلى مصر ورافق محمد عبده، وقام بإصدار مجلة المنار، وتوفي سنة 1354هـ - 1935م، من آثاره تفسير المنار الذي اقتبسه من دروس محمد عبده في التفسير. (ينظر: نويهض عادل،2،1988/539).

فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة عبد الحميد بن باديس أحد حلقات هذا المسار الإصلاحي و "جاءت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في أدق مرحلة عبرتها الجزائر، وأنت في ظروف صعبة تتجسم في المشاريع الفرنسية والتي تلغي وجود الجزائر تاريخيا وواقعا وفكريا، وقد أنت هذه الجمعية لتقييم توازنا على المستوى الثقافي والحضاري، والذي يؤدي بدوره إلى توازن على المستوى السياسي" (طهاري محمد، 11،1999) فتأسست لتحقيق أهدافها الإصلاحية في خدمة اللغة العربية والتعليم، ونشر الفهم الصحيح للدين، ونشر الوعي في صفوف الجزائريين، والدفاع عن الشخصية الوطنية الجزائرية.

حيث "خرجت هذه الجمعية إلى الوجود في الخامس من مايو عام 1932 وكان مركز نشاطها الأول نادي الترقى بالجزائر العاصمة" (طهاري محمد، 11، 1999) "وقد عكست تجربته التربوية استيعابا دقيقا لوضعية الجزائر المحتلة، وللشروط القابلة القادرة على تأمين مواجهة ناجحة مع الاستعمار السياسي - الثقافي الذي بلغ عمره في حياة بن باديس أكثر من قرن" (طهاري محمد، 1999، ص 11) ففرض واقعا جديدا في كل مناحي الحياة فيقول مالك بن نبي "لقد تغير الزمن: فلاستعمار والقابلية للاستعمار غيرا كل المعطيات في الجزائر كما فعلا ذلك في سائر العالم الإسلامي... إذ لم يكن القيام بأي عمل في النظام السياسي أو الاجتماعي ممكنا قبل تحرير الضمائر" (ابن باديس، 1997، 11/1).

وجاءت فكرة الإصلاح لتغيير هذا الواقع وإصلاح المجتمع الجزائري بتكوين أجيال من الجزائريين الملتزمين بشخصيتهم والمؤمنين بقضية وطنهم، فاعتمدت حركة ابن باديس مفهوما شاملا للإصلاح لا يقتصر على جانب واحد، ولا ينحصر في ميدان واحد "والإصلاح بالمعنى الشامل قد يبدأ بالثقافة أو بالدين أو بالمجتمع، ولكنه في نهاية الأمر يغطي كل مظاهر الحياة في مجتمع ما، بما في ذلك السياسة، وهذا بالضبط ما حدث للإصلاح في الجزائر" (أبو القاسم سعد الله، 88، 1992) فلم تنحصر حركة الإصلاح في جانب واحد دون غيره ولكنها توسعت لجميع الميادين الحياتية التي تهم الإنسان الجزائري.

واستعملت من أجل ذلك وسائل مؤثرة على وعي الناس وفكرهم "فخلال هذا العقد نشأت الصحافة الإصلاحية وتأسست النوادي، ونبئت المدارس الحرة ومساجد الوعظ والإرشاد في كثير من القرى الجزائرية ومدنها، وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة" (أبو القاسم سعد الله، 84، 1992) فنشرت أفكارها الإصلاحية في تكوين الفرد والمجتمع، كما عبّرت عن مواقفها في جميع المراحل المهمة من الصراع مع الاحتلال لكسر خطته في تزييف وعي الجزائريين والهيمنة عليهم، "ساهم تكوين الفرد والدفاع عن الشخصية الجزائرية في بلوغ الأهداف السياسية لتربية بن باديس، إذ أنها إلى جانب إعدادها لجيل قادر على المواجهة ساهمت آراء بن باديس في توضيح الخطر السياسي والاقتصادي والثقافي" (طهاري محمد، 23، 1999) وكشفت مؤامرات الاحتلال الفرنسي ومواجهتها، ومن ذلك:

مسألة التجنس التي حاول من خلالها الاحتلال فرض حالة من الاندماج على المواطنين الجزائريين، فقاومت جمعية العلماء وابن باديس هذا المسعى الاستعماري، "وعارض هو و أنصاره الاندماج بشدة و اعتبره خطرا على وجود الكيان الجزائري" (أبو القاسم سعد الله، 3، 1992/88) فقد لعبت جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين بهذا الموقف على استقلال كيان الشعب الجزائري، وأحببت فكرة الاندماج التي عملت على غواية نخب جزائرية "كما تمثل في رفض السياسة الاستعمارية الداعية إلى التجنس، ونقد الجزائريين الذين وقعوا أو كادوا يقعون في التجنس وفي الدعوة إلى استقلال القضاء الإسلامي الذي دجّنه القانون العام الفرنسي" (أبو القاسم سعد الله، 1996، 145) فأحبط مخطط الإدماج و الهيمنة الفرنسية.

وكذلك الدفاع عن حق التعليم باللغة العربية للجزائريين حيث "تمثل ذلك في صراعها الخفي والعلني ضد الإدارة الاستعمارية فيما يتعلق بحق الجزائريين في التعليم عموما وبلغتهم العربية خصوصا، وفي المطالبة بتخلي الإدارة الاستعمارية عن الشؤون الإسلامية، وترك الإسلام لأهله، طبقا لاتفاق 1830 ولمبدأ فصل الدين عن الدولة الذي طبقته فرنسا على الأديان الأخرى غير الإسلام" (أبو القاسم سعد الله، 1996، 145)

ومن ذلك دفاعه عن تعليم المرأة الجزائرية، وفتح مدارسه أمامها، حيث "بني القانون الأساسي للجمعية من الوجهة التربوية على تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم" (ابن باديس، 2، 199/269) ومثل هذه المواقف الإستراتيجية أثمرت تلك النهضة والوعي الحضاري الذي توجّج مرحلة الحركة الوطنية.

ثانيا: أصوله الفكرية في كليات مصالح الإنسان.

1: أثر فهم القرآن لفهم حاجيات الإنسان.

يأتي التفسير لبيان ما في القرآن الكريم حيث "الفسر: البيان. فسر الشيء يفسره بالكسر، ويفسره بالضم، فسرا وفسرته: أبانه، والتفسير مثله... وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان 33)، الفسر: كشف المعطى والتفسير كشف المراد من اللفظ المشكل" (ابن منظور، 2003، 101/7) و تفسير القرآن الكريم أحد نشاطات و جهود بن باديس في نشر الوعي و تربية الأجيال، حيث "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه" (الزركشي، بدر الدين محمد، 1984، 13/1). فهو يجمع بين بيان المعاني والدلالات وكذلك استنباط الأحكام والحكم، فتفسير عبد الحميد بن باديس ( تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) ( ينظر: ابن باديس، 2003) " فمن المعروف أنّه قد ختم تفسير القرآن درسا في خمس وعشرين سنة، حيث شرع في تفسيره في سنة 1913م، وانتهى منه في آخر فصل الربيع من عام 1938م" (طهاري

محمد، 23، 1999) من خلال مجالسه العلمية المسجدية ومقالاته المنشورة، واهتمامه بتفسير القرآن لأته يعلم تأثيره في وعي المجتمع وقناعاته "وله في القرآن رأي بني عليه كل أعماله في العلم، والإصلاح، والتربية والتعليم، وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا "بالرجوع إلى هدايته و الاستقامة على طريقته، وهو طريق الهداة المصلحين من قبله " (ابن باديس، 1، 20/2003). "والقرآن نفسه كتاب لا يستطيع عزله عن الحياة أبدا، وهل نزل إلا ليخطئ أو يصوب من أفكارها؟ أو ليمحو أو يثبت من أحوالها؟" (الغزالي محمد، 4، 2005)

وتفسيره هو التأصيل الفكري الإصلاحي لمنطقاته القرآنية في رؤيته للكون والإنسان، والذي ربط فيه بين المنقول والمعقول، مستلهما من التراكبات المعرفية في التراث التفسيري، مستندا على نظرة مقاصدية كلية للإصلاح، و"هي الغايات التي أنزلت الشريعة لتحقيقها لمصلحة الخلق في الدارين" (القرني عوض بن محمد، 19، 1998) مبينا منهجه التفسيري في مقدمة تفسيره قائلا "معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون، وعمدنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة" (ابن باديس، 2003، 1/41). فاعتمد على منهج يجمع بين النقل والعقل، والموازنة بين التراث والحديث. متوخيا مقاصد التشريع في الإصلاح وبلوغ مصالح الإنسان العامة "وذلك أن القرآن الكريم أتى للتعريف بمصالح الدارين جلبا لها، والتعريف بمفاسدها دفعا لها... فالكتاب أتى بما أصولا يُرجع إليها، والسنة أتت بما تعريفها على الكتاب، وبيانا لما فيه منها" ( الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات، 4/18 ).

فالمنهج المقاصدي الذي اشتهر في الأندلس والمغرب العربي، حيث "أته ينتمي إلى المدرسة المالكية المغربية، ومعلوم ما لهذه المدرسة من تميز وملامح خاصة... لاسيما في مجال ومقاصد الشريعة التي بلغ فيها الشاطبي شأوا عظيما، وهذه النزعة المقاصدية، وإن خبت لفترة من الزمن، لكنها ظلت كامنة القوة، منتظرة الحركات الإصلاحية التي بدأت بشاثرها من المغرب العربي" (سامر عبد الرحمن رشواني، 2009، 84) ولموضوع الآيات محل التفسير أهمية محورية، مستندا على منهج مقاصدي يحتكم فيه إلى كليات الدين وأصوله "فقد أعاد إلى الأذهان الحاجة الملحة، بل الضرورة لعرض الإسلام عرضا شاملا مأخوذا من مصادره الأساسية، حتى تتمكن من مواجهة ما طرأ على حياتنا من زيف يرجع إلى ظروف التخلف الاجتماعي والسياسي على مرّ الزمن، ولذلك فإنه عندما ينتهي من شرحه للمناسبة والمفردات والتراكيب النحويّة والمعنى الإجمالي للجملة

القرآنية حتى يطوف في أجواء الآية الكريمة" (محمد طهاري، 33، 1999) "إلى ما فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة في الدنيا والأخرى - وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام، وكليات السياسة والتشريع، وحقائق الحياة وال عمران والاجتماع، ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة، والعدل والإحسان" (ابن باديس، 32، 2003) حيث "المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه" (بن عاشور الطاهر، 2001، 273)

## 2: المصالح الكلية للإنسان في إصلاحه الديني:

نشر الوعي الإسلامي ومحاربة مظاهر التخلف الذي طبع سلوك الأفراد والجماعات، وتربية الأفراد والأجيال على القيم الصحيحة للدين هي سبيل الحفاظ على شخصية المجتمع الإسلامي، التي تؤدي به إلى حرته، والجمع بين الإصلاح العقائدي والاجتماعي، فمن خلال تفسير القرآن يتم الحفاظ على صفاء العقيدة الإسلامية في توحيد الله تعالى، ومحاربة أفكار الخرافة والجهل التي انتشرت في الأوساط الشعبية باسم الدين، وينطلق بن باديس في منهجه المقاصدي بداية من التكريم الإلهي للإنسان "هذا التكريم المذكور هو عام للنوع الإنساني من حيث هو إنسان لا فرق فيه بين من آمن ومن كفر، لأنه راجع للخلقة الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع، والتمكين من أسباب المنافع التي هو ثابت لجميع النوع بما عنده من عقل وتفكير" (ابن باديس، 129، 2003) وهو تكريم عام وشامل للنوع الإنساني حيث "عظم حظ الإنسان من هذا التكريم، من جهة ذاته: بحسن صورته واعتدال مزاجه، ومن جهة روحه: بأنها من العلم النوراني العلوي، وبأنها مع اتصالها بالبدن قابلة للتجلي بأكمل الصفات، وأطهر الأخلاق، ومن جهة عقله: الذي به أدرك الحقائق، وحصل المعارف، وعرف الأسباب ومسبباتها، ووجوه ارتباطاتها واتصالاتها، ونسبة بعضها من بعض..." (ابن باديس، 2003، 129) ومقتضى هذا التكريم في التمسك بالإسلام والعودة إلى أصوله الصحيحة، من خلال الكليات الخمسة في حفظ الدين والنفس والعقل و المال والعرض.

ومن حفظ الدين حفظ عقائده ومحورها توحيد الله عزّ وجلّ، فجاء القرآن الكريم ليثبت جوهر أحكام التوحيد، التي هي عماد الحفاظ على جوهر الدين ومحاربة مظاهر الشرك والخرافة " إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقا في هذا

الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإخفاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون ويذهبون إلى الأضرحة التي شيّدت عليها القباب" ( ابن باديس، 2003، 158) فعمل في تفسيره على ربط الإنسان الجزائري بصفاء عقيدته في توحيد الله والتوكل عليه، ليكون هذا التوحيد باعثا له لتحزّره من الخرافات واكتساب الإرادة في الأمل بهذا الإيمان بوحداية الله وقدرته.

وبذلك يصبح لمفهوم القدر مفهوما يمنح للإنسان حرية الاختيار وإرادة الفعل و " أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها، موصلة، بإذن الله تعالى، من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر الله وتقديره وسنته في نظام هذه الحياة والكون" (ابن باديس، 2003، 50) فيبعث الحياة في إرادة الناس والعمل على تغيير واقعهم، وأنّ واقعهم ليس قدرا محتما وإنما يمكن الأخذ بالأسباب التي أودعها الله تعالى في الكون والبشر للتغيير والإصلاح، والخروج من ذلك التواكل والخنوع ورمي الأعداء على الأقدار والمصائر دون إرادة للتغيير، والوعي بالحقوق والواجبات المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد "وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسدّ تلك الحاجة المشتركة بين الناس، وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده، بل هي خدمة للمجتمع كله" (ابن باديس، 2003، 79).

ومن أهم الكليات التي يدافع عنها القرآن الكريم كلية النفس البشرية الكريمة "الإنسان الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض ليعمرها، ويستثمرها ويعبرها إلى دار الكمال الحق، والحياة الدائمة الأبدية، هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلا قطعيا، وكلية عامة في الدين" (ابن باديس، 2003، 89) ولذلك حرّم الله القتل ووآد البنات وإزهاق الأرواح دون حق، (وهذا الفعل الذي كان في الجاهلية على الوجه المتقدم، وهو فعل مؤد إلى قطع النسل وخراب العمران، لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان: إما بالقتل بعد الولادة، وإما بإفساد الحمل بعد التخليق، وهو حرام باتفاق" (ابن باديس، 2003، 91).

ويأتي حفظ العقل ثالثا حيث "العلم الصحيح، والخلق المتين، هما الأصلان اللذان ينبنى عليهما كمال الإنسان، وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات" (ابن باديس، 2003، 99)

فحفظ العقول ونشر العلوم هو سبيل تطوّر الأمم، ونشر الجهل هو تخلفها " (ابن باديس، 99، 2003) وهذا هو طور انحطاط الأمم، الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع منها العلم، ويفشو الجهل، وتنتشر فيها الفوضى، بأنواعها، فتتخذ رؤوسا جهالا لأمر دينها وديناها... سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا، يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه " (ابن باديس، 102، 2003)، ولذلك أولى بن باديس أهمية للعلم في واقع أراد له الاحتلال أن يغرق في الجهل "فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا وتشيدون له صرحا سامقا فأستستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم" (ابن باديس، 2، 556/1997) وهكذا يواصل الحرص على الكليات العامة من حفظ المال وحفظ الأعراض، للوصول إلى استنهاض الجزائريين للعودة إلى صحيح الدين "وأحكامه المبينة على العدل والإحسان، ونظمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات، والتآلف والتعامل والتعاون" ("ابن باديس، 1997، 547/2) لنيل النصر الذي كان يبشر به عبد الحميد بن باديس ففي سياق تفسيره للآية الكريمة:

﴿... كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249)﴾

فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد، أن تصلح أنفسها بالصلاح الذي بينه القرآن... " (ابن باديس، 2، 350/1997) وهذه المصالح الكلية هي مصالح الإنسان في الحياة و طريقها هو طريق السعادة النصر.

#### النتائج:

لعبت شخصية عبد الحميد بن باديس بوصفه إماما وعالما في قيادة حركته الإصلاحية إلى بلورة تجربة إنسانية وثقافية في ترقية الوعي الديني والثقافي الذي ساهم في تغيير المجتمع الجزائري نحو استعادة شخصيته وأصالته، والتحرر من محاولة الإدماج الديني والثقافي في المنظومة الاستعمارية، التي كانت تهدف إلى الهيمنة على المجتمع الجزائري ومسح شخصيته بما يرسخ هذه الهيمنة، وأنشأ بن باديس مشروعه على منطلقات وأصول وكليات الشريعة الإسلامية، بنظرة مقاصدية راعت التكريم الإسلامي للإنسان عموما، وتحقيق مصالحه، في الكليات العامة من حفظ الدين و النفس والعقل والمال والعرض، ضمن المبادئ الدينية العامة، وهذه التجربة جديدة بالدراسة وإثراء الدرس الأنثروبولوجي في فهم الفكر الإصلاحي ومرجعياته الإسلامية، ودوره في تقديم تصورا مقاصديا للإنسان عموما في إصلاحه وفهم حاجياته ومصالحه، وتصحيح تلك الدراسات التي تنشر الصور

النمطية عن المجتمعات المختلفة لثقافتها لتحقيق مصالحها في الهيمنة والوصاية على هذه المجتمعات، ويمكن تلخيص أهم النتائج فيما يلي:

- يعتبر الفكر الإصلاحي لابن باديس نموذجاً للدراسة الأنثروبولوجية لفهم مدى تأثير فكر الإصلاح الديني الإسلامي في التأثير على وعي وسلوك المجتمع، ودوره في التحولات التي حدثت لهذا المجتمع.

- واجه الفكر الإصلاحي الذي قاده بن باديس تلك النظرة الدونية للأنثروبولوجية الكولونيالية التي روجت لقصور المجتمع الجزائري وحاجته إلى الوصاية الاستعمارية للاندماج في رؤيته الحضارية.

- المرجعية الإسلامية للفكر الإصلاحي عند بن باديس ساهمت في نشر الثقافة الإسلامية، والتأثير على الوعي الديني والاجتماعي في الإنسان الجزائري، وتربية أجيال جديدة استطاعت إحداث التغيير المنشود في التحرر.

- أنشأ بن باديس فكره الإصلاحي على أساس منهج مقاصدي قرآني، يرتبط بكليات قيمية ومبادئ كبرى للدين والحياة، تجعل الإنسان يحقق سعادته و يحافظ على عقيدته و شخصيته وأصالته.

- يحتاج علم الإنسان إلى تراء الفكر الإصلاحي في تأسيس رؤية أنثروبولوجية للوصول إلى الكليات المقاصدية العامة للإنسان عامة، بمختلف تنوعاته الثقافية، لأنها كليات تخدم مصالح البشرية في ضبط وتقييم سلوكها الديني والاجتماعي و الثقافي.

- هذه المقاصد يمكن البناء عليها في معرفة أسباب سعادة المجتمعات الإنسانية أو شقائها، لأنها كليات مرتبطة بالوجود البشري و تطور الجماعات البشرية وتحولاتها، وتحقيق التغيرات المنشودة في إصلاحها وتطورها، وبناء ثقافتها العامة بما يثري مجالات الأنثروبولوجيا.

#### المراجع:

#### القرآن الكريم.

- 1- ابن باديس عبد الحميد، 1997، آثار بن باديس، إعداد: عمار طالبي، ط3، الشركة الجزائرية، الجزائر.
- 2- ابن باديس عبد الحميد. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، 2003، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 3- ابن عاشور الطاهر. 2001، مقاصد الشريعة الإسلامية، ط2، دار النفائس، عمان، الأردن.
- 4- ابن منظور. أبو إسحاق، 2003، لسان العرب. دط، دار الحديث، القاهرة، مصر.

## مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) (المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

- 5- أبو القاسم سعد الله، 1996، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 6- أبو القاسم سعد الله، 1992، الحركة الوطنية الجزائرية، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 7- رشواني سامر عبد الرحمن، 2009، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط1، دار الملتقى، حلب، سورية.
- 8- الزركشي، بدر الدين محمد، 1984، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط3، دار التراث، القاهرة، مصر.
- 9- الزركلي، خير الدين، 2006، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- 10- الشاطبي، أبو إسحاق، 2000، الموافقات. تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- 11- شارلوت سيمور - سميت، 2009، موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثولوجية، ترجمة، جابر عصفور وآخرون، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر.
- 12- عيسى الشماس، 2004، مدخل إلى علم الإنسان 'الأنثروبولوجيا'، دط، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا.
- 13- الغزالي محمد، 2005، نظرات في القرآن الكريم، ط6، شركة نهضة مصر، القاهرة، مصر.
- 14- القرني عوض بن محمد، 1998، المختصر الوجيز في مقاصد التشريع، ط1، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية.
- 15- محمد الجوهري وآخرون، 2007، مقدمة في دراسة الأنثولوجيا، دط، المكتبة العصرية، القاهرة، مصر،  
الرابط:

[www.books4arab.com](http://www.books4arab.com)

- 16- محمد طهاري، 1999، الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر - الشيخ عبد الحميد بن باديس، ط1، دار الأئمة، الجزائر.
- 17- الملي، محمد، ابن باديس وعروبة الجزائر، 2007، دط، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر.
- 18- نويهض عادل، 1988، معجم المفسرين، ط3، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان.